

## الفصل الثامن



بعد مدّة وجيزة من التقرير الذي بثّته الإذاعة، عادت والدتي إلى البيت يوماً وهي تحمل كمية قليلة من الدقيق لصنع العشاء، حيث لم نحصل تلك الليلة إلا على كمية ضئيلة من الطعام. وحين جلست على الأرض لتشاركنا العشاء، نظرت إلى الممرّ، فإذا بكهامبا يقف عند الباب المفتوح. كان في حال يرثى لها؛ إذ كان رأسه متدلياً، وعيناه مرتختين، وأضلاعه بارزة من جلده كالشفرات. حتى إنّ المشي عبر الباحة كان كفيلاً بإرهاقه. لقد كان يموت جوعاً.

كانت جلد الماعز في عيد الميلاد آخر وجبة كبيرة تناولها. وقد منحه ذلك الطعام بعض القوة، حتى إنّّه زاد من وزنه. لكنّه لم يحظَ بغيره منذ ذلك اليوم. وقد أحصيت عدد المرّات التي أطعمته فيها (حفنات من السیما فقط) خلال الأسبوعين المنصرمين، فكانت خمساً فقط. لم أكن في حاجة إلى تفكير عميق. وكان ذلك الرقم هو كلّ ما استطعت التفكير فيه. ثمّ شعرت كأنّ مطرقة تنهال على معدتي ضرباً لدى مشاهدته واقفاً هناك. لم يكن لدي تلك الليلة أيّ شيء يمكن أن أعطيه إيّاه، فقلت: معذرة يا صديقي. لا أستطيع مشاركتك في طعامي.

لم يستغرق تناول الطعام وقتاً طويلاً. وحالما انتهى الطعام وغاب عن الأنظار، نهضت ومشيت عبر الممرّ، ثمّ عدت إلى الغرفة متخطياً الكلب، ثمّ أغلقت الباب، وخلدت إلى النوم.

أيقظني الجوع في صباح اليوم القادم، ولم أكن أعرف أنّ معدتي سيطرت على جسدي كلّهُ في أثناء الليل، وملاّت كلّ طرف وشقّ فيه ليصبح كبالون كبير. أخيراً، حدث الانفجار في نقطة ما من الصباح الباكر لتكشف عن فراغها؛ إذ كانت مليئةً بالهواء فحسب. وفي خضم ذلك الفراغ، لم يبقَ سوى الألم. أخذت أنفاساً عميقة في محاولة لملء الفراغ مرّة أخرى، لكنّ ذلك لم يُجدِ نفعاً. كنت مفلطحاً كعجلة داخلية، وقد تسبّب لي ذلك في ألم كبير. استلقيت بعدها في السرير، مُصغياً إلى وقع حبات المطر وهي تضرب السقف بثبات عبر القش والغطاء البلاستيكي تحته، ثمّ شعرت بجسدي يذوي هناك في العتمة.

فقلت لنفسي: يجب أن تأكل.

بقيت مستلقياً إلى أن أرسلت الشمس شعاعاً رمادياً عبر النافذة الموصدة. وحالما غاب صوت المطر، استجمعت قواي لأنهض. فنهضت من السرير، وارتديت ثيابي، ثمّ تناولت بعض الحاجيات وخرجت. وفي هذه الأثناء، توقّفتُ عند باب المطبخ، وأخذتُ أختلس النظر. كان كهامبا مستلقياً عند حفرة النار التي فقدت حرارتها منذ زمن. لم أستطع تمييز أكان يتنفس أم لا؟ ثمّ سألت نفسي: هل شاهدنا الحلم نفسه؟ وما هي لحظات حتى صرخت، قائلاً: لنذهب إلى الصيد يا كهامبا.

سرت كلماتي كشحنة تيار في جسده؛ إذ رفع رأسه، وضرب ذيله على الأرض. وكان قد مرّ عام مُدّ قلت تلك الكلمات آخر مرّة. لقد كافح ليتغلّب على ضعفه ويقف على أقدامه التي ترتجف من جرّاء التهاب المفاصل، لكنّه هزّ ذيله بحماس. لقد كان مستعداً.

قلت له: لنحضر بعض الطعام.

لم يكن لديّ أيّ ذرة أو غاغا لأستخدمها طعماً. لذا، أخذت حفنة رماد من نار والدتي ووضعتها في كيس سكر. ثمّ سرت أنا والكلب صوب مرتفعات دوا التي بدت كأنّها مكسوّة بصخب أودي؛ إذ لم يتوقّف المطر عن الهطل حتى اللحظة. أخذت منّا الطريق ضعف الوقت بسبب بطء حركة كهامبا الذي كان يعرج خلفي ببطء. وكنت قد أبقيت على مسافة خطوتين بيني وبينه، وأخذت أُصفرّ مراراً في محاولة لرفع معنوياتي. كانت الذرة تنمو خضراء طويلة

في الحقول، فعرفت أنّ المحنة ستنتهي عن قريب، أو أكثر قليلاً. ثمّ نظرت إلى السماء؛ بحثاً عن الطيور، فلم أجد شيئاً.

بعد ذلك، ثبّت المطّاط على الأعمدة في موقع الشّرك ومددته إلى الخلف، وهيأت الزناد، ثمّ نثرت الرماد في منطقة القتل. وفي واقع الأمر، فقد بدا المنظر مثيراً للشفقة.

قلت: أمل أن يُجدي هذا نفعاً.

قد أتمكّن من النوم الليلة إن تمكّنت من اصطياد ثلاثة طيور. ولربّما تحسّن كهامبا وتمالك نفسه لشهر آخر. أمسكت الحبل وجررته خلف شجرة ثومبوزي مسافة عشرين قدماً. وفجأة، انهار كهامبا مُرتطمّاً بالأرض، ثمّ غطّ في النوم تقريباً. أما أنا فتمددت على بطني مُنتظراً.

وبعد نحو ربع ساعة، ظهر سرب صغير من خمسة طيور، ثمّ هبط بجانب الشّرك. وحينئذٍ، رفع كهامبا رأسه كأنّه يشاهد حلماً. وحال أخذت الطيور تقترب من منطقة القتل، بدأت أسرح بمخيّلي:

رأيت - بالحركة البطيئة - المطّاط وهو يضرب الطيور بالجدار مُحطّماً إيّاه في الحال. ثمّ رأيت نفسي وأنا أنزع ريشها، فرؤوسها، ثمّ تناولت سكينتي عن خصري وأحدثت فيها جرحاً تحت الصدر، ثمّ نزع أحشاءها ورميتها في الهواء فالتقطها كهامبا بفكيه، فضحكت وأثّيت عليه، لكنني لم أعرف ماذا قلت. بعد ذلك، أخذت أنظف الطيور بالماء، ثمّ رششت الملح على اللحم الدافئ وفركته جيداً كي يتشرب اللحم. ثمّ أشعلت ناراً صغيرة خلف الشجرة، وسرعان ما استحالت جمرّاً مشعّاً. حينئذٍ، فصلت أجزاءها الخلفية، ثمّ وضعت الصدور على الجمر مباشرة، وبدأت أسمع صوت اللحم وهو ينضج. وما هي إلا لحظات حتى انتشرت رائحة اللحم المشوي من حولي، كأنّها أحاطت الكون بأسره. وحين داعبت الرائحة دماغي، أخذت أُقلّب اللحم، وبدأ لعابي يسيل.

صحوت من خيالاتي بفعل دقات قلبي المتسارعة، لأرى الطيور توشك أن تثب نحو الشّرك. في حين جلس كهامبا ينظر متصلباً وتائهاً في أحلام اليقظة اللذيذة. فأمسكت الحبل مُرتجفياً. ولكن، ما إن دخلت الطيور منطقة القتل حتى أدركت أنّ الطعم ليس إلا

مجرّد رماد لتطير بعدها بسرعة. حينئذٍ، تنهّدت وقد غمرني شعور بالهزيمة، فأفلت الحبل، واستسلمت للواقع المرير، ثمّ أسترسلت في البكاء.

في تلك الليلة، طوى كهامبا نفسه، وغطّ في نوم عميق مخيف. كانت رحلة الصيد قد استنزفت طاقته كلّها تقريباً. وكنت قد وفّرت نصف حفنة من السیما وبعض أوراق اليقطين من العشاء، ثمّ خرجت إلى حيث كان مستلقياً، وصرخت: العشاء يا كامبا!

كانت تلك كلمة أخرى يعرفها. ففتح عينيه، وأخذ يضرب ذيله. ثمّ قذفت الطعام فوق رأسه، لكنّه لم يبذل جهداً لالتقاطه، فسقطت السیما وأوراق اليقطين على الأرض محدّثة ضجّة. استغرق منه استيعاب الأمر وقتاً، ثمّ نهض وبدأ يأكل.

بعد ذلك بيومين، أطعمته مرّة أخرى، وكانت الوجبة قليلاً من أوراق اليقطين التي وضعتها في صحنه. وحين رأني جاء يعرج. ولكن، ما إن تناولها حتى تقيّاً على الفور. حينئذٍ، أدركت أنّ النهاية قد اقتربت. فقلت له متوسّلاً: اصمد شهراً واحداً فقط. سنأكل كما يحلو لنا بعد شهر.

تقيّاً طعامه في الليلة اللاحقة أيضاً، ولم يُجد ما فعلته أيّ نفع يُذكر.

وفي اليوم القادم، عرّج تشاريتي وميزيك على بيتي في طريقيهما إلى المركز التجاري. كانت أول مرّة أرى فيها ميزيك مدّاً أكلنا الطيور في المنتدى. خبرته حينها شابّاً سميناً. أمّا الآن فلم يبقَ منه إلاّ بقية إنسان متهالك، وكانت عظام وجهه ناتئة بوضوح.

وحين رأى كهامبا سيطر الجنون على صوته، فقال وهو واقف عند رأس الكلب: انظر إلى هذا الشيء، إنّ منظره يثير الشفقة.

كان كهامبا نصف نائم، جلده وعظامه يغطّيها الذباب، لم يعد يأبه حتى بذلك.

قال ميزيك: لا أُطيق النظر إليه.

قلت لنفسني: إذن لا تنظر، ثمّ حاولت تغيير الموضوع. ما شأنه بكلي؟ لقد حاولت تغيير الموضوع حقّاً.

سألت: ماذا ستفعلان اليوم؟

أجاب تشاريتي: سنتوجه إلى المركز التجاري كالمعتاد؛ بحثاً عن الغانيو، لكنني متشائم حيال نجاح هذا الأمر.

بقي ميزيك صامتاً بينما تجاذبت أطراف الحديث مع تشاريتي. كان لا يزال يحدّق بكهامبا بعينين لا تطرفان.

قال ميزيك: لماذا لا تنتهي معاناة هذا الشيء. خذه خلف البيت، وبصخرة كبيرة. تظاهرت أنني لا أسمعه.

قال تشاريتي: إنّه محق يا ويليام؛ يجب أن تفعل شيئاً. خذه إلى الدامبو حيث مستوى الماء مرتفع. فهو لا يملك طاقة للسباحة.

قلت: مهلاً، ما هذا الذي تقولانه؟

قال ميزيك: نقول: إنّه أن الأوان أن تصبح رجلاً. لقد حان موعد قتل هذا الحيوان البائس.

وددت لو هشمت وجهه. صاحبي، بالله عليكم كُفّا عن مثل هذا القول، فكهامبا على ما يرام، قتلها وصوتي يزداد ضعفاً.

قال ميزيك: اسمع، إذا لم تصبح رجلاً وتفعلها بنفسك، فسنفعلها نحن من أجلك. هذا الشيء يثير اشمئزازي.

قال تشاريتي بصوت خفيض: ذلك عين الصواب. لن يتعيّن عليك فعل أيّ شيء. سنمرّ غداً لأخذه. لن يشعر بأيّ شيء.

حاولت الاعتراض على ما سمعته، لكنّ الكلمات لم تسعفني، وكانا لي بالمرصاد. وفي هذه الأثناء، رمقني ميزيك بنظرة مجنونة، قائلاً: لم يعد القرار بيدك بعد الآن.

عندما غادر ميزيك وتشاريتي، شعرت بدوار وضعف، وكانت الأرض تمور تحت قدمي. وقفت هناك أراقب كهامبا وهو يغط في نومه، ثم تدبرت أمر الجلوس إلى جانبه. كان الذباب كثيفاً عليه؛ يدور ويحط مرّة تلو أخرى. فتح عينيه أخيراً بعد نصف ساعة، وضبطني أنظر إليه، فضرب ذيله على الأرض ببطء. ذكّرتني طريقة نظره إليّ بأيام الصيد، وبالكيفية التي كنّا نتواصل بها مع بعضنا من دون حاجة إلى الكلام.

كيف لي أن أحمي كلبتي في حال عاد ميزيك وتشاريتي؟ لا يمكنني أن أدعهما يأخذانه. لذا، فكّرت في طرائق عدّة لفعل ذلك إلى أن حلّ الظلام على المكان، عندئذٍ، عرفت الإجابة. لقد كانا على حق؛ فكهامبا كان يعاني إلى حدّ البؤس. ولكن، جانبهما الصواب بخصوصي. في صباح اليوم اللاحق، خرجت إلى فناء البيت أراقب كهامبا في نومه، فظهر تشاريتي في الباحة. بدأ قلبي يخفق بشدّة. نظر إلى كلبتي، ثم أخذ يحكّ ذفته. لكنني وقفت قبل أن يقول أيّ شيء.

قلت: سأخذه أنا.

قال: ماذا؟

قلت: سأخذه أنا إلى الغابة.

هزّ كتفيه، قائلاً: يمكنك إنجاز المهمة بسرعة باستخدام صخرة.

قلت: هذا ما أريده.

أوما تشاريتي برأسه، ثم قال: لقد اتخذت القرار المناسب. اليوم سنقوم بهذا الأمر معاً.

قلت: اليوم.

عندما عاد تشاريتي في الظهيرة، مشينا إلى المنطقة المظلمة خارج غرفتي. كان كهامبا لا يزال مستلقياً هناك من دون حراك. تظاهرت حينها أنني شخص آخر، وهذا ما كان فعلاً.

قلت: لنذهب إلى الصيد يا كهامبا.

رفع رأسه.

قلت: فلنذهب.

تعثّر بأقدامه ونفض نفسه لطرده الذباب عن ظهره، وعرج نحوي. استغرقنا وقتاً طويلاً للخروج من محيط البيت. ثم تقهقرت قليلاً أمامه لكيلا يغيب عن ناظري، قائلاً: هيا يا فتى، يمكنك فعل ذلك.

مشينا على الطريق المنحدرة متجهين إلى المرتفعات، حيث كانت الشمس منخفضة في الجهة الغربية، مُلوّنة التلال بلون برتقالي مشع. وكان الهواء دافئاً وجافاً ما جعله مثاليّاً للصيد. وما إن دخلنا أجمة اليوكالبتوس (مكان يعرفه كهامبا جيداً) التي يصل طول نباتها إلى أذقاننا، حتى استدار تشاريتي عند نقطة ما، قائلاً: من هنا. حينئذٍ، شعرت بأن قلبي نزل إلى معدتي.

تبعنا كهامبا، الذي كان يصارع ليتمكّن من السير بين ثنايا العشب والأغصان الطويلة.

قلت: هيا يا كهامبا.

كنت أشعر بالدموع حارّة في حلقي، لكنني ابتلعتها. وحين لاحظ تشاريتي ذلك، استدار نحوي، قائلاً: لا تنزعج، إنه مجرد كلب.

قلت: نعم، إنه مجرد كلب.

بعد دقائق معدودات، توقّفنا في أيقة كثيفة محاطة بعشب يطاول الصدور. كانت الجبال ظاهرة في الأفق من بين أشجار اليوكالبتوس.

قال تشاريتي: هذا مكان مناسب. لن يمرّ أحد من هنا.

نظرت حولي، وكنت ما أزال قادراً على رؤية بيتي، ثم قلت: هذا ليس بعيداً كفاية.

قال: لن يستطيع الكلب السير أكثر من ذلك.

كان كهامبا قد ارتمى تحت شجرة ثومبوزي وهو يلهث بصعوبة.

بدأ تشاريتي - من دون أن أتفوه بشيء - بسلخ اللحاء عن بعض أشجار السانغا لصناعة حبل طويل، ثم طواه على نفسه ليجمعه أكثر متانة. فأدرت ظهري، وأخذت أُحَدِّق بالأشجار.

هدأت يدا تشاريتي في مرحلة ما، لكنني لم ألتفت.

قلت: اربطه إلى الشجرة.

لفَّ تشاريتي أحد طرفي الحبل حول جذع شجرة ثومبوزي، ثم ربط الطرف الآخر بقدم كهامبا الأمامية.

وحين استجمعت قوتي وتمالكت نفسي، استدرت لأجد كليبي مستلقياً على العشب الطويل. كانت أضلاعه ناتئة من جنبه، وكان يلهث بوهن. بعد ذلك، استدار تشاريتي وغادر من دون أن يقول شيئاً. وحين تبعته، رفع كهامبا رأسه وأخذ ينوح. كان جسده أضعف من أن يُصدر صوتاً حقيقياً، فقط مجرد نجيب ينم عن خوف نابع من الأعماق. كان يعرف أنني سأتركه. وبعد السير خطوات عدّة، ارتكبت خطأ باستدارتي نحوه؛ إذ كانت عيناه توصلان النظر إليّ، ثم سرعان ما أنزل رأسه إلى الأسفل.

همست لنفسي: لقد ارتكبت أمراً فظيلاً، ثم أخذت أَعُدُّ الخطى.

قال تشاريتي: لقد كان عجوزاً. كان سيموت على أي حال.

رددت في نفسي: لقد ارتكبت أمراً فظيلاً.

وما إن وصلنا إلى محيط البيت حتى توجه تشاريتي إلى المنتدى، حين مشيت أنا نحو غرفتي. وفي هذه الأثناء، وقع بصري على صحن كهامبا الملقى بجانب قن الدجاج. فركضت، والتقطته، ثم ضربته بالأرض مُحطماً إياه إلى قطع عدّة.

قلت لنفسي مُجدداً: إنه مجرد كلب.

بقيت مستيقظاً في أثناء تلك الليلة لعلمي أنّ كهامبا ما يزال أسفل التل القريب. قد يكون قادراً على سماعي إن ناديت عليه بصوت عالٍ في الظلام.

تجنّبت معظم الناس في اليوم اللاحق، وحاولت البقاء في الحقول. لكن، ما إن عدت إلى البيت حتى وجدت عمّي سقراط يخرج من هناك بعد زيارة والدي.

قال: أين كهامبا؟ لم أره في أيّ مكان.

قلت: وأنا لم أشاهده أيضاً، لعله يبحث عن طعام في مكان ما.

قال: أتمنى ألا تكون الكلاب البرية قد هاجمته. فإن فعلت فسوف نشتم رائحة جثته ولا شك.

شعرت بالغيثان طوال اليوم، وحاولت تلك الليلة تجنّب التفكير في كهامبا، وإعمال دماغي في كلّ شيء ما عداه. لم يكن الأمر صعباً؛ فقد كنت جائعاً لدرجة أنّني لم أستطع التركيز على شيء واحد وقتاً طويلاً على أيّ حال.

في صباح الغد، عرّج عليّ تشاريتي، فوجدني جالساً في غرفتي، فقال: لنذهب ونتعرّف ما حلّ بكهامبا. لقد كانت معنوياته مرتفعة.

قلت: ماذا تقصد؟

أجاب: نريد أن نعرف أمات أم لا؟

لم أقل شيئاً.

قال: سنأخذ معنا بعض المعاول ليظن الناس أننا ذاهبان إلى الحقول. يمكننا استخدامها في دفنه أيضاً.

انطلقنا نحو المرتفعات حاملين المعاول. كنت مضطرباً، ولم أرغب في الحديث. انحرفنا عن الطريق ودخلنا الدغل. كان العشب لا يزال رطباً من الندى، فأصاب البلب بنطالي. وبعد دقائق عدّة، رأيت كتلة بيضاء على الأرض.

سأل تشاريتي: أهو ميت؟

اقتربت أكثر؛ لأتمكّن من مشاهدته بصورة أفضل، فوجدته مستلقياً بالوضعية نفسها التي تركته عليها. كان رأسه متديلاً ومُلَقَى على برائثه الأمامية، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما. شهقت مُتَوَقِّعاً أن يتحرّك. ولكن، عندما اقتربت أكثر، رأيت لسانه يتدلّى من فمه. لقد كان جافاً كالورق. وكان هنالك رتل من النمل يتحرّك في فمه جيئةً وذهاباً.

قلت: كهامبا ميت.

لم يكن الحبل قد تحرّك من مكانه. لم تكن هنالك أيّ مقاومة. وفجأة، عَنَّت لي فكرة مخيفة؛ لقد فقد كهامبا الإرادة في الحياة عندما رأني أغادر المكان، ذلك يعني أنني قتلته. بينما فكّ تشاريتي الحبل عن الشجرة، أخذت أحفر حفرة بالمعول وتفكيري خاوٍ أسود. ثمّ سرت في جسدي طاقة كبيرة من ذلك المكان البارد المظلم. لقد كان أكثر جهده أبذله منذ أشهر.

كان الحبل لا يزال مربوطاً بساق كهامبا. لذا، قمت بشدّه في حين أزاله تشاريتي بالمعول. وبقليل من الجهد، تمكّنت من إسقاط كهامبا في الحفرة.

قلت: الوداع يا كهامبا، لقد كنت صديقاً وفيّاً.

ملأنا الحفرة بالتراب من دون أن نترك أيّ علامة، حتى إننا أخفينا الأثر بالعشب والأغصان. وحين وصلت البيت أنا وتشاريتي، لم نخبر أيّ أحد بما فعلناه، وبقي الأمر سرّاً طوال سنوات، حتى الآن.

بعد دفن كلبتي بأسبوعين، اجتاحت الكوليرا المنطقة.

كان الوباء قد بدأ بالانتشار في شهر تشرين الثاني المنصرم بالمنطقة الجنوبية قرب موانزا؛ إذ ذهب أحد مُزارعي المنطقة لحضور جنازة في كاسيا التي تبعد عشرين كيلومتراً عن ويمبي، ثمّ عاد جالِباً معه المرض. لقد مات العشرات في تلك القرية خلال أيام، كما أصيب المئات في مختلف أنحاء المنطقة.

تُعَدُّ الكوليرا طريقة مروّعة للموت؛ إذ تبدأ بالألم حادّ في المعدة، وغثيان، ووهن عام. يتبع ذلك إسهال شديد يكون فيه البراز سائلاً، وعديم اللون، ومن دون رائحة. وفي هذه الأثناء، يستنزف المرض الطاقة والحياة من الجسم، تاركاً صاحبه في حالة ضعف لا يقوى فيها حتى على الكلام، ثمّ يتسبّب في الوفاة بعد مرور ست ساعات إذا لم يُعطَ المريض العلاج اللازم.

تُعَدُّ الكوليرا أيضاً رفيق شؤم لموسم المطر في مالوي وبقية الدول الإفريقية؛ إذ تحتوي معظم القرى على حفر مراحيض بدائية تطفح أحياناً، مُلوّثة الينابيع والآبار التي يشرب منها الناس. وينقل الذباب البكتيريا المسبّبة للمرض بعد أن يحطّ في المراحيض، ثمّ يطير ليحطّ على الطعام. وقد أُصاب المرض أيضاً الأشخاص الذين كانوا يبحثون عن الطعام في أثناء تفشّي المجاعة. لقد أصابتهم الكوليرا وهم في الطريق، ثمّ حملوها معهم إلى الدغل. إضافة إلى هذا، نشر المطر والذباب والصراصير المرض بتلويث قشر الموز والدرنات والقشور التي التقطها الناس عن الطريق وأكلوها.

من جانبها، بذلت العيادة الموجودة في المركز التجاري جهوداً طيبة لحمايةنا من الإصابة بالمرض، عن طريق توزيع الكلور مجاناً لمعالجة مياه الشرب. وقد أحضرته والدتي إلى البيت ظهيرة أحد الأيام بزجاجة كوكا كولا، ثمّ أصبح طعم المياه كالمعدن بقية الشهر. كما عملنا - حسب تعليمات العيادة وتوصياتها - علينا تغطية حفرة المراض بقطعة معدنية مسطّحة موصولة بعصا مكنسة. ولكن، ما إن كنّا ندخل ونزيل الغطاء، حتى يطير الذباب من الحفرة كالطاعون الكبير الذي ذُكر في الكتاب المقدّس، ويغطّي وجوهنا وأفواهنا ورؤوسنا. وبذا، أصبحت عملية هشّها وقضاء الحاجة في الوقت نفسه أمراً مرهقاً. وكان ظهور أيّ أثر للإسهال حول حفرة المراض يُبذّر بالخطر، ويفرض حالة الطوارئ في المنطقة المحيطة. كان المصابون بالكوليرا يمرّون من أمام بيتنا يومياً في طريقهم؛ لتلقّي العلاج، وعيونهم بيضاء، وجلدهم مجعّد بسبب الجفاف. كنت أراقبهم من وراء الأشجار إلى أن يقتربوا، ثمّ أركض باتجاه البيت. ولكن، ما أن يذهبوا حتى يتبعهم الجياع.

كان الأشخاص الذين يموتون بالكوليرا يُعمرون بالكور، ثم يُدفنون في أثناء الليل في المقبرة القريبة من الكنيسة الكاثوليكية، ويتولَّى هذه المهمة عادة الأطباء أنفسهم الذين حاولوا معالجة هؤلاء المصابين. وقد جرت العادة - في مثل هذه الأحوال - بتسريع العملية، بدفن جثتين في حفرة واحدة، ثم تغطيتها بسرعة. لم يكن أحد يعرف عدد الضحايا في ويمبي. وقد استمر الدفن بصورة يومية؛ سواء الجوع كان السبب، أم الكوليرا.

بالعودة إلى البيت، كانت حالة فقر الدم التي يعانيتها جيفري تزداد سوءاً؛ إذ انتفخت قدماه على نحوٍ مروّع، وأخذتا تتحسَّسان من أيِّ شيء، فبمجرد لمسك إحداهما يترك إصبعك أثراً في جلده المنتفخ؛ كأن ساقيه مليئتان بالصلصال.

كنت ألكزه، سائلاً: هل تحسَّن بذلك؟، فيجيب: لا.

كان يشعر عادة بالدوار، ويواجه صعوبة في المشي باستقامة. ففي ظهيرة أحد الأيام، اصططحته خارجاً تحت أشعة الشمس، لكنه توقَّف قائلاً: انتظر، لا يمكنني رؤية شيء. وقفنا هناك حتى اعتادت عيناه تحمّل الضوء. يُذكر أنّ والدته لم تُقدِّم له في الأشهر الماضية سوى أوراق اليقطين وقت العشاء. لقد كان ابن عمي يموت ببطء.

وفي المقابل، لم يكن بمقدور والدتي سوى أخذ نصف حصتنا اليومية من الدقيق، ووضعها في حوض، ثم التوجّه إلى بيت جيفري، قائلة:

لقد أتيت لأشارككم في هذا. الكمية ليست كبيرة، لكنّها تكفي لعمل عصيدة.

فتردّ والده جيفري: شكراً جزيلاً، لقد أنقذت حياتنا.

فتعقب والدتي: نحن نقاسمكم كل ما نملكه. لا يمكن أن نترك عائلتنا تتضور جوعاً.

بعد ذلك بأيام عدّة، جاءت شقيقة والدي كريسي، وقالت: لقد وقع الوالد مَغشياً عليه في الباحة، وهو لا يتناول سوى أوراق اليقطين. أرجو أن تصلي لوالدنا يا أخي.

في ظهيرة ذلك اليوم، أخذت والدتي نصف دقيقنا مرّة أخرى، وأعطته لجدي.

وفي هذه الأثناء، كنّا نفقد الوزن جميعاً؛ إذ بدأت عظام صدري بالبروز، وأصبح الحبل الذي كنت أستخدمه حزاماً لا يفي بالغرض، فأخذت أشدّ قطعتي الحزام معاً، ثمّ أربطهما بعضاً، مثل العصابة تقريباً، وكنّت ألّفها ببساطة حين أصبح أكثر نحافة. أمّا فمي فكان جافاً باستمرار. وأصبحت ذراعاي نحيفتين كأعمدة اليوكاليبتوس، وكانتا تؤلمانني باستمرار. وسرعان ما صرت أواجه صعوبة في ضمّ يدي وفتحها.

وبينما كنت أزيل الأعشاب من الحقول في ظهيرة أحد الأيام، بدأ قلبي يخفق بشدّة لدرجة أنّني عجزت عن التنفس، وكاد يُغمى عليّ. قلت لنفسي: ما الذي يجري لي؟ ثمّ تملّكني شعور بالخوف، فانحنيت ببطء حتى لامست ركبتاي الأرض، وبقيت على تلك الحال مدّة طويلة حتى عاد قلبي إلى طبيعته، وتمكّنت من التنفس.

جلست في غرفتي في أثناء الليل وبجانبي القنديل، ثمّ أخذت أُحدّق بالجدران بعينين ناعستين؛ كأنني أُحلّق في عالم آخر. وفجأة، رأيت حريشة (أمّ أربع وأربعين) تزحف أعلى الجدار، وقد خُيّل إليّ أنّها استغرقت ساعات عدّة وهي تزحف هناك. ثمّ أمسكت بجناحي ذبابة نوار تطير قريباً جداً من اللهب، وسألتها: كيف بقيت حيّة حتى اللحظة؟ ماذا تأكلين؟ ثمّ أفلتتها وشاهدتها تقع على الأرض على نحو لولبي مثل طائفة ورقية معطوبة.

لم يكن بمقدور أيّ سحر إنقاذنا الآن. الجوع هو نوع قاسٍ من العلم.

أنداك، أصاب والدي وسواس بشأن وزنه؛ إذ كان جسده الضخم قد تقلّص كحبة فاكهة تذبل تحت أشعة الشمس، وأخذت العظام الحادّة تبرز بعد اختفاء العضلات الضخمة. وبيد أسنانه أكبر من السابق، وتمكّنت من رؤية ندوبه. قال لي ذا يوم: إنني أواجه صعوبة في الرؤية. فقد أثار الجوع في بصري مثلما أثار في بصر جيفري.

كان هاجس والدي يزداد كلّما أصبح أكثر نحافة، فتراوده رغبة عارمة في معرفة وزنه، فيعمد إلى ذلك باستخدام ميزان ذرة مُعلّق بحبل في مخزن التبغ. وقد شاهدته ذا صباح يقوم بحركته المعهودة تلك؛ إذ أمسك بالخطّاف، ووقف ككيس ذرة أو حزمة تبغ، مُحدّقاً بالإبرة. تمللم قليلاً، ثمّ قال: مممم، خمسة كيلوغرامات، يا لهول!.

جاءت والدتي ونظرت كالعادة، لكنّها أبت أن تزن نفسها. وقد مُنِع الأطفال من ذلك أيضاً. قامت والدتي بفعل ما تفعله النساء كافة في أوقات الجوع؛ إذ ربطت المبانغو حول خصرها كالحزام، وقالت إن هذا الأمر يُربِك معدتها ويخدع قلبها، كي لا يخفق بسرعة ويُصعّب من عملية تنفسها؛ إلا أنّ ذلك لم يمنع يديها من الارتجاف كلّما أرضعت شقيقتي الصغيرة في الصباح والظهيرة.

اعتادت والدتي ممارسة الألعاب الذهنية في الليل، وكثيراً ما كانت تقول لشقيقتي:

إنّك تفقدن الوزن بسبب تفكيركّ المستمر في الطعام. ألا تعرفن أنّ ذلك يُرهق أجسادكّ، ويحرق مزيداً من الطاقة؟ إذا كان الجوع هو شغلكنّ الشاغل، فسوف تعانين أكثر.

فكانت كلّ منهنّ تبكي، قائلة: لا أريد أن أصاب بالانتفاخ يا أمي.

فتردّ والدتي: إذن، يتعيّن عليكّ التفكير في أمور إيجابية. أرجو أن تفعّلن ذلك من أجلي.

بعد ذلك، تُعدّ والدتي السیما التي تجعلنا نحلّق عالياً، ونشطح في تفكيرنا؛ فاللحم الثلاث لم تكن تترك أيّ انطباع أو أثر يُذكر في أجسادنا.

كان والدي يعمد إلى مغادرة المكان عند تقديم الطعام، فنقول له:

ألن تأكل يا أبي؟

فيجيب: أنا على ما يرام، كلوا أنتم يا أطفال.

وبينما كان والدي جالساً في الباحة ذا صباح، أخذ يتمتم بكلام غريب، قائلاً: من الأمور الغامضة والرائعة المتعلقة بالجوع، أنّه يفكّك بالرجال فقط.

لقد بدا غاضباً، لكنّه كان محمّساً؛ فالرجال همّ الذين يخرجون لتأمين لقمة العيش، ويستهلكون طاقة ثمينة لا يمكن تعويضها. وفي الوقت الذي كانت فيه الكوليرا تضرب من

دون تمييز، بدا الجوع كأنه يفتك بالرجال فقط. كان هنالك كثير من الرجال الذين يهجرون عائلاتهم ويتركونها تتدبر أمرها بنفسها. كانوا يخبرون زوجاتهم صباحاً أنهم ذاهبون للبحث عن الطعام، لكنهم لا يعودون أبداً؛ إذ وقعوا ضحية للضغوط التي تحتم عليهم توفير لقيمات من الخبز لزوجاتهم وأطفالهم. وقد دفع ذلك الأرامل والنسوة اللاتي هُجرن إلى التجمع بالعشرات عند بيت الزعيم ويمبي. يُذكر أنني لم أشاهد غيلبرت منذ أيام عدّة بسبب انشغاله برعاية هؤلاء النسوة.

لا شكّ في أنّ والدي كان يفكر في ذلك؛ لأنّه استدار نحو والدي، قائلاً: العناية بعائلتي هي مسؤوليتي أنا، إذا كُتب علينا الموت فسنموت معاً، تلك هي مبادئنا، ليكن الله في عوننا.

أُصيبت شقيقتي ميليس بالمalaria بعد ذلك بأسبوع. وقد استلقت على فراش من القصب أياماً عدّة، وأصابها حالة من التعرّق والرجفة في أثناء النوم، وكانت كثيراً ما تصحو لتتقيأ، ولم تستطع الحفاظ على الطعام في معدتها، وأُصيب جسمها النحيل أصلاً بحالة من الهزال الشديد، شأنها في ذلك شأن بقية العائلة. كانت تبكي وتبوح في أثناء الليل من شدة الألم في ذراعها وساقها. وقد لازمتها الحمى الشديدة، لدرجة أنّ والدي حاول إيداعها العيادة، لكنّ الأطباء رفضوا ذلك بحجّة خضوع المكان للحجر الصحي من جرّاء الكوليرا.

اعتادت والدي البقاء مستيقظة ساعات عدّة إلى جانب شقيقتي؛ وهي تُغني لها أغاني شعبية، وتُحفّف عنها بقطعة قماش مبلّلة. وكانت غرفتها مضاءة بقنديل الكاز.

كنا نسمع الكلمات نفسها في أثناء الليل عبر الممرّ المظلم:

لا تقلقي، لا تقلقي.

لكنّ الجميع كان قلقاً.

قالت والدي: ادعوا لشقيقتكم، إنها مريضة جداً.

وحين تعافت ميليس أخيراً، كانت نحيفة جداً لدرجة أنها بدت كشبح يمشي بيننا.

في منتصف شهر شباط تقريباً، أصبح التبغ جاهزاً للتشذيب أخيراً. لذا، كان والدي في حاجة إلى مساعدة مني ومن جيفري. فكنّا نجمع الأوراق الصفرة الزيتية على شكل حُزم، ثمّ نجلس في الظلّ، وننظّم جذع كل ورقة بإبرة كروشيه وخيط ملولو. بعد ذلك، كانت الحزم تُعلّق؛ لتجف تحت العرائش المصنوعة من أشجار اليوكالبتوس وأعمدة الخيزران، وهي عملية قد تستغرق ثمانية أسابيع تبعاً للرطوبة المحيطة. كان النظم والتعليق يستغرقان ساعات عدّة، ويؤذيان ظهورنا، ولاسيّما أنّنا لم نكن نمتلك طاقة للوقوف أصلاً. وفي ظلّ حالة الهذيان التي عشناها، أصبحت صفوف التبغ الجاف تبدو مثل الطعام اللذيذ.

قلت لجيفري: وددت لو تمكّنا من أكل بعضها.

قال: نعم، لكننا شعبنا الآن.

قلت: ستجف عمّا قريب، وسيصطف التجار لكي يشتروها. عندئذٍ، سنتمكّن من وضع حدٍّ للمعاناة التي نعيشها.

قال: صدقت.

لكنّ ذلك لم يحدث؛ فبعد أسبوع فقط من تعليق التبغ، ذهب والدي إلى المركز التجاري، وأخذ يعقد الصفقات مُعوّلاً على المحصول حالما يجف؛ إذ لم يسعه الانتظار حتى يحين موعد المزاد. كان لا بُدّ من توفير عشاء لنا. وفي ذلك يقول والدي: عائلتي تعلّق آمالها كلّها عليّ يا أخوتي. أودّ أن تمنحوني سعراً جيداً؛ عشرون كواتشا لكلّ كيلوربما. علماً أنّ الووكمان يكلف ثلاثين كواتشا.

هزّ التجار رؤوسهم قائلين: تعرف أنّ الأوضاع صعبة، لن نمنحك أكثر من عشر كواتشات في هذا الوضع.

قال والدي: أرجوكم، أعطوني ما يكفي لشراء ووكمان، لا تجعلوني أتوسّل. صنّف

هذا التبغ ممتاز؛ إنه يجف بطريقة جيدة.

وافقوا بعد المفاوضات على دفع خمس عشرة كواتشا. لقد أصبحت تلك الصفقات ظالمة ومرّة مع تفشي المجاعة.

بدأ التجار يقولون: سأعطيك سطلاً من الذرة لقاء تسعين كيلوجراماً من التبغ حالما يجهز.

لم يتمكن حتى صديق والدي السيد مانغوتشي من مقاومة التيار الجارف في السوق، فلم يعد لوالدي خيار سوى القبول. كان يعقد مزيداً من الصفقات أسبوعياً، مُعوّلاً على المحصول حالما يصبح معداً للقطف، محاولاً تسوية الأرقام في دماغه. كان كثير من الرجال على استعداد للمحاربة من أجل للحصول على فرصة كهذه.

في تلك الأثناء، كانت سيقان الذرة في الحقول تطاول صدر والدي. وبدأت طلائع السنابل في التكوّن، لتظهر آثار الحرير المائل إلى الحمرة على رؤوسها. وبدأت الأوراق الخضراء الغامقة تستحيل إلى اللون الأصفر كما السيقان. وبينما كان الرجال يذبلون ويذوون في الأنحاء كلّها، كانت نباتاتنا تشب قوية يانعة في أبهى حُلّها.

نظرت إلى والدي، قائلاً: عشرون يوماً.

قال: أعتقد أنك محق.

ابتسمنا وداعبنا الأوراق كطفل في مهده، مستمتعين بالموسيقا الهادئة التي تصدرها مع هبوب النسيم.

إذا كنت محقاً فعلاً فإنّ الذرة الخضراء تحتاج إلى عشرين يوماً لتصبح صالحة للأكل؛ أي لتصبح شيئاً نستحب تسميته دوي. إنّها ما يطلق عليه الأمريكيون اسم «الذرة المسلوقة»، حيث يكون اللبّ غصّاً حلواً، وله مذاق رائع في الفم. حين وقفت بتلك الحقول في شهر شباط، أحسست أنّني أحد المستكشفين القدماء الذين قرأت عنهم؛ تائه في المحيط، وأوشك أن أموت من شدّة العطش، ويحيط بي الماء من كلّ جانب، لكنني لا أجد شيئاً أشربه. لقد حلمت بالدوي ليل نهار.

في نهاية الشهر تقريباً، أعلنت محطة راديو وان أن الدوي أصبحت جاهزة في متشينجي التي تقع على بُعد مئة وعشرين كيلومتراً جهة الجنوب الغربي. فبدأ مئات من الناس يتوجهون إلى هناك، وفيهم خالي آري. لقد شاهد على الطريق رجالاً مسنّين يتوقّفون وهم يلوّحون لأفراد عائلاتهم قائلين: هيا، اذهبوا إلى متشينجي. وقد سمع لاحقاً أن أولئك الرجال فارقوا الحياة؛ إذ حرس عصابات مسلّحة بالرماح والحراب الحقول، وهاجمت كلّ مَنْ يقترب منها. فقد كانت السرقة متفشية. وبينما انتظر خالي خارج متشينجي منتظراً بعض الكيولوجرامات من الذرة، سمع جلبة كبيرة على أطراف القرية فهرع ليستوضح الأمر. كانت مجموعة من الناس قد هاجمت للتو لصاً وقتلته. وقد شاهد خالي جثة الرجل ملقاة على العشب، بعد جَزْ رقبته حتى العظم.

بعد نحو خمسة أشهر من المعاناة، في السابع والعشرين من شهر شباط تحديداً، بثّت الإذاعة رسالة من الرئيس، أخبرنا فيها أن البلاد تمرّ بموجة من الجوع والمرض. وبعد التشاور مع المسؤولين، توصل أخيراً إلى أن الأمر يستدعي إعلان حالة «الطوارئ». قلت لكم إن رئيسنا رجل ظريف.

في بداية شهر آذار، كانت سيقان الذرة تصل إلى كتفي والدي. أصبحت الأزهار مؤشراً في تلك المرحلة. وحالما يبدأ الحرير (الأحمر والأصفر) يجف ويتحوّل إلى اللون البني، يمكنك بدء الفحص للتيقن من مدى نضج الدوي. قرصت العرانيس بشدّة لأتحسس حباتها. فإذا تحطمت في أصابعي فذلك يعني أن الوقت ما يزال مبكراً. ولكن، إذا كانت الحبات قاسية، فتلك إشارة إلى أن وقت قطافها قد حان.

تردّدت على حقول التبغ يومياً في ذلك الأسبوع برفقة جيفري لتفحص الدوي، وكان كلانا يستخدم رموزاً سرية؛ لكيلا تتبعانا شقيقاتي، وتكتشفان أنها جاهزة للقطف.

قلت: لنذهب ونحرق بعض الدبابير يا جيفري.

قال: الدبابير، نعم!.

مشينا بين صفوف الذرة جيئةً وذهاباً، مشيرين إلى العرانيس التي أوشكت أن تنضج.

قلت: انظر إلى هذه، ستصبح في فمي بعد ثلاثة أيام.

قال: لنحضر الحطب. أيمكننا فعل ذلك؟

قلت: أعتقد أن بإمكاننا فعل ذلك.

وأخيراً، لمحت في أحد الأيام عرنوساً تبدو عليه علامات النضج، فضغطت على حبّاته بأصابعي، ليتبيّن لي أنّها كانت قاسية.

قلت: إنّه ناضج.

قال جيفري متحمّساً عرنوساً آخر: وهذا ناضج أيضاً.

قلت: هذا يعني أنّ اليوم الذي طال انتظاره قد حان.

قال: حقاً! فلنتابع.

تابعت التجوّل بين الصفوف، وقطفت الدوي الناضج وحملته بيدي بلطف. وسرعان ما أصبح لديّ خمسة عشر عرنوساً فاضت بها ذراعي. فقممت بتقشير الطبقات الأولى من القشور وربطتها معاً لتصبح كما السلسلة، ثمّ وضعتها على كتفيّ. بعد ذلك، مررت بعريشة التبخّ لأحضر حفنة من الحطب كُنّا قد أعددناها لإشعال النار. لقد كان منظري أنا وجيفري ونحن نركض إلى البيت بعقود الدوي لافتاً للانتباه، وكاد أن يُفضي إلى وقوع أعمال شغب بين أصحاب الأجساد النحيلة التي أخذت تُردّد:

— لقد نضج.

— لقد نضج.

— نضج الدوي!.

أسرعت إلى المطبخ، وأشعلت ناراً في الحال. وسرعان ما امتلأ المكان بدخان أبيض أدمع عيني وأغرقهما بالدموع. لم آبه بالأمر؛ فقد كنت متحمّساً جداً. وما هي إلا لحظات حتى تجمعت شقيقاتي في المطبخ الضيّق، وأخذتا تتدافعان؛ لإيجاد موطئ قدم لهما، قائلات:

— دعيني أرى!.

– لا، أنا أثبتُ أولاً. انتظري أنتِ.

– أنا سأقف هنا.

صرخت قائلاً: اخرجوا فكمية الدوي تكفي الجميع.

لم أنتظر حتى تستحيل النار جمرًا، فوضعت بعض العرائيس على اللهب مباشرة، وأخذت أقلبها حتى أصبحت القشرة بنية ثم مسودة كما ينبغي. ولم أنتظر حتى ينضج الطرف الآخر لكل منها، فرفعت أحدها عن النار، وكان حارًا لدرجة أن أصابعي احترقت. بعدئذٍ، أزلت القشور الملتهبة، وبدأت الأكل. كانت الحبات سمينة ودافئة ومليئة برحيق الجنة. مضغت ببطء وبلذة فائقة تليق بالانتظار الطويل. أحسست في كل مرة أبلع فيها بعض الحبات أنني أسترده شيئاً فقدته، أو جزءاً مفقوداً مني. وحين أنهيت أكل أحد الطرفين، كنت أعيد الطرف الآخر إلى النار، ثم أنتقل إلى الذي يليه.

دخل والداي المطبخ وشاهداني وأنا أحضّر الطعام الملتهب.

لا أعتقد أن هذه الدوي ناضجة. دعني أذوق، قالها والدي، ثم تناول إحداها بسرعة. وبعد أن أزال الحبر عنها، قضم الدوي باستمتاع كما فعلت أنا. بدا أن الحياة دبّت في محيّاها خلال ثوانٍ فقط. لقد عرف حينها أنه سيبقى حياً يرزق.

قال: إنها ناضجة.

أكلت أنا وجيفري نحو ثلاثين قطعة في ظهيرة ذلك اليوم.

كانت طلائع اليقطين ناضجة في حقولنا أيضاً؛ كأنّ النعيم هبط علينا فجأة. كنت قد راقبتها من كتب على مدار أسابيع، في انتظار أن تنمو وتأخذ الشكل واللون المناسبين. والآن، وبعد طول انتظار، فقد أصبحت كبيرة كراس رجل، وبرتقالية كشمس الصباح. فقمتنا بسطحها وعلينا في قدر بأجزائها جميعاً؛ البذور، والقشرة، وكلّ شيء. أيضاً، جمعت والدي كومة من اللبّ الدافئ الغضّ، ثم وضعتها في إحدى السلال، فالتهمناها حالاً. يا إلهي، كم من متع ومسرات في هذه الحياة؛ أفضلها – دون ريب – ملء المعدة بالطعام الساخن!

حتى إنَّ جيفري قَدِمَ لتناول الدوي واليقطين بمعيّتنا، وسرعان ما زال الانتفاخ من ساقيه، واستعاد صحته وعافيته كما في الأيام الخوالي.

كان شهر آذار يمثل احتفالية بالنسبة إليّ وإلى جيفري. فقبل التوجّه إلى الحقول صباحاً، كنّا نقطف حفنة دوي، ثمّ نُشعل ناراً تحت عريشة التبغ لتناول فطوراً شهياً، يتخلّله بعض المداعبات، مثل:

— هذه لي، وتلك لك يا سيد جيفري.

— حسناً، أعطني حصتي.

تذكّرت مثلاً كان المسيح يضره لأتباعه عن زرع البذور؛ فالبذور المنثورة في الطريق تتعرّض للتلف، وتلك المنثورة في أرض صخرية لا تنبت الجذور وتموت، وتلك المنثورة بين الأشواك تتعرّض للاختناق. أمّا البذور التي تُنثر في أرض خصبة فتعيش وتتمو.

— إننا مثل البذور المزروعة في أرض خصبة يا سيد جيفري، ولسنا على قارعة الطريق يدوسنا المشاة.

— فعلاً، فتحن ما زلنا أحياء.

— هذا صحيح يا سيد جيفري. لقد بقينا على قيد الحياة».

كانت سلال الدوي واليقطين الساخن تشبه جيشاً جرّاراً قَدِمَ لنجدتنا من هزيمة محقّقة. وبدأ الناس في المركز التجاري يبتسمون ويتحدثون عن المستقبل. لن تعود الحياة كما كانت إلّا بعد الحصاد. أمّا في البيت، فكانت كتلة السيما تقدّم على العشاء كلّ ليلة. ولكن، حتى تلك فقد كانت — في الأقل — مقدّمة لأمر جيدة.

بدأت أسير مسافات طويلة لتفقد الأوضاع في مالوي، ولأشاهد مَنْ تمكّن من النجاة وكيفية تكيفهم مع الوضع. ولما أصبحت الدوي جاهزة في الحقول الآن، فقد بدأ الناس يجفّفونها في باحاتهم ويحضّرون التشيتيبو الذي يُعدّ نوعاً من السيما، ولكن أكثر حلاوة. بدأ الناس يستعيدون قوتهم، وبدأت أشاهد وجوهاً مبتسمة تحييني على طول الطريق.

أصبح الناس الذين أصابهم الوهن في الأوس، وكانوا يذرعون الطرقات بضعف، يعودون إلى منازلهم حاملين أطفالهم على ظهورهم، وحزماً كبيرة على رؤوسهم. ولكن، لما كانت أجواء المجاعة كانت لا تزال حاضرة، فقد توقَّعت أن أسمع منهم السؤال نفسه الذي سمعته من الغرباء طوال أشهر: غانيو؟ أنا أبحث عن غانيو... لكنني وجدت عوضاً عن ذلك تحية التفاوض والمحبة المعتادة.

– مولي بوانجي؟ كيف حالك؟

– نديري بوينو، كايا إينو؟ بخير، وأنت، كيف حالك؟

– نديري بوينو: بخير.

– زيكومو: شكراً على السؤال.

– زيكومو: بل شكراً لك.

أصبح الناس الآن يمشون في المركز التجاري وهم يصافحون جيرانهم كأنهم عادوا من رحلة طويلة شاقّة.

كانوا يقولون:

– لقد سعدت برؤيتك يا صديقي. أرى أنك ما تزال حياً

– أنا موجود. كيف تدبّرت أمرك؟

– كان الله في عوننا.

أتاحت لنا بركات الدوي العودة إلى رتابة الحياة الطبيعية، لكنّها جلبت اللصوص أيضاً؛ إذ كان كثير من المزارعين القادمين إلى ويمبي من مناطق أخرى لا يستفيدون من الدوي واليقطين لعدم امتلاكهم حقولاً مخصصة بهم، فقاموا بأخذها من غيرهم. وكان الأشخاص الذين يعيشون في أجمة اليوكالبيتوس المخصصة بعائلة غيلبرت ينتظرون حتى نزول المطر في أثناء الليل؛ ليسرقوا الدوي الناضجة. وقد أدى تكرار ذلك على مدار

أسبوعين، إلى نفاذ الثمار كلّها من معظم الحقول. حدث الشيء نفسه معنا أيضاً؛ إذ كنّا نمشي كلّ صباح على الطريق المحاذي لحقولنا، فنجد على الأرض أوراقاً خضراء ودويماً مقضومة حتى النواة؛ كأنّ كتيبة كانت تأكل من هناك طوال الليل.

وسرعان ما انتشرت في المركز التجاري قصص مروّعة عن الانتقام. ففي أحد الأيام، سمعت الصبية يتحدثون عن تلك الجرائم.

قال أحدهم: سمعت أنّ بعض المزارعين في كينجي أمسكوا رجلاً في حقولهم. أتعرف لماذا؟ لقد استلوا حرابهم، وهمّوا بقطع أذرعهم سائلين: هل تريدون أن أقطع من فوق المعصم أم من فوق المرفق؟ كانوا يستغيثون: لا!

قال غيلبرت: أمسك ابن عمي صبيّاً يسرق الدوي خاصة، فوضع سيخاً حديدياً في النار حتى احمرّ، ثم أمر الفتى أن يمسكه، وهو ما حدث فعلاً.

لقد جعلني ذلك الحديث كلّه عن الانتقام، أتساءل عمّا سنفعل بشأن حقولنا. وفي وقت لاحق من الليل، سألت والدي عن العقاب الذي سنوقعه على من يسرقون غلالنا، قائلاً: هل نقتلهم أم يجدر بنا الاتصال بالشرطة؟

هزّ والدي رأسه، قائلاً: لن نقتل أحداً يابني. وحتى إذا اتصلنا بالشرطة فسيموت أولئك الرجال جوعاً في السجن. مُصاب الناس واحد يا بني؛ إنّه الجوع. علينا أن نتعلم الصّح.

